Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ضومط مثلاً عملياً لإثبات وجهة نظره وإيضاحها بقوله : «ضع زهرة عطر على أنفك ، فبعد قليل لا تعود تستشعر برائحتها »[٢٥] ، بيد أن الأمر لا يعني أن القوة المتأثرة تظل ضمن هذا الخط الإنحداري . في الواقع إنها تظل تترقب الفرصة لاستعادة قدرتها الأقوى على التأثر . وضومط يبني استنتاجه هذا على ملاحظة عامة لطبائع القوى . إنه يقول : « كما أن من طبع القوى إذا اشتغلت أن تكل ، فكذلك من طبعها أيضاً أن تطلب العودة إلى حالتها الأولى[٢٦] . وهذا « الطبع » لدى القوى ، كما يرى ضومط ، « قد لا يتطلب المدة الطويلة من الراحة ؛ فإن الفترة القصيرة كثيراً ما تكفي لإنعاشها ورجوعها نوعاً إلى نشاطها السابق »[٢٧] .

أما الملاحظة الثالثة فإنها ، كما يبدو ، تستند إلى التحليل الذي قدمه ضومط في الملاحظة الثانية . إنها ، في الواقع ، التطبيق العملي لطاقة القدرة المتأثرة على العودة إلى نشاطها بعد راحة تحصل عليها . من هنا ، فهو يرى أن « النفس إذا فعل عليها مؤثران أحدهما قوي والآخر أشد منه ، وتوالى عليها المؤثران القوي أولاً والأشد ثانياً ، أشعرت بأثر المؤثرين كل على حدته ، وأدركت أيضاً نسبة أحدهما إلى الآخر[٢٨] ، وهذا يعني أن الطاقة المتأثرة يكون تفاعلها ناجحاً إذا ما تراتب حصول التأثيرات عليها بدءاً من الضعيف وانتهاءً بالأقوى .

ولعل الملاحظة الرابعة تأتي انطلاقاً من استنتاج مبني على الملاحظة التي سبقتها ؛ إذ هي تعتمد مبدأ الاختلاف بين المؤثرات المتتابعة . فضومط يرى أن « الانتقال من أحد الضدين إلى الآخر يُظْهِرُ كلاً من الضدين في أشد مظاهرهما »[٢٩] . وهو يعطي على هذا مثالاً في ظهور النقطة البيضاء في الرقعة السوداء : إذ يبدو وكأنما زاد بياضها ؛ والعكس صحيح أيضاً .

من هذه الملاحظات الأربع يصل ضومط إلى استنتاجات يراها أساسية في الفعل البلاغي . فمن الملاحظتين الأولى والثانية يرى « أن على الكاتب التحول في كتابته والانتقال فيها من صورة إلى صورة في سائر ما يأخذ به من ضروب الكلام »[٣٠] . وللبرهان على صحة الاستنتاج الذي توصل إليه يعقد ضومط